الفصل الخامس

مؤرخو القرن الثانى

{ أبو مخنف لوط بن يحيى }

يعتبر تأسيس بغداد علامة تميز ابتداء الحقبة الادبية فى العربية بمعنى أن الكتب أخذت تؤلف لتقرأ وتروَى وتحفظ ، وإن كان من العسير النيل من إيمانهم بأن الرواية الشفوية وحدها هى الوسيلة الموثوق بها . وليس من اليسير حقا أن نميز بين المؤلف الذى قصد أن تروَى مادته والمؤلف الذى دونها : وكان من المستطاع أن توجد الاخبار المعزولة مدونة أو مروية شفاها ، ويبدو أن الآثار التى وجدت قبل كتب التاريخ المتصلة المطردة ، كانت على هذه الصورة . ومن هذا اللون كان أبو مخنف لوط بن يحيى ، الذى توفى حوالى ١٥٧ ، ويعزى إليه ٣٢ كتابا . وقد أدخل الطبرى فى كتابه كثيرا من رواياته . ومن المفترض أن رواة مختلفين من هذه الحقبة المبكرة تخصصوا فى أجزاء من موضوعهم : وكان أبو مخنف أكثر من غيره معرفة بأمور العراق ، والمدائنى بشئون خراسان ، والهند ، وفارس ، والواقدى بالحجاز ، على حين كانوا جميعا على معرفة متكافئة بفتوح سورية . ويعالج كل كتاب من كتب أبى مخنف جميعها حادثا واحدا : فهى رسائل عن مواقع ، أو وفيات المشهورين ، أو أحداث كان لها أهميتها فى التاريخ القديم . وقد قال عنه أحد المتزمتين : كوفى ، وليس حديثه بشىء .

{ عوانة بن الحكم }

وقد نذكر بين رواة المعرفة الذين ظهروا قبل شيوع الكتب المدونة عَوَانة بن الحَكَم ، وكان من أصل وضيع ، إذ كان أبوه عبدا خياطا وأمه أَمَة سوداء ، ولكن استقى من معارف علماء الجيل التالى ؛ واختلف فى وفاته بين عامى ١٤٧هـ و ١٥٨ هـ . وكان من العلماء بالفتوح خاصة ، مع علم بالشعر . وقيل إنه كان عثمانى الهوى يضع الأخبار لبنى أمية : ولكن رواية أخرى تجعله علويا ، يأسف لفشل محمد بن عبد الله ، الذى خرج على الخليفة المنصور ، ولكنه هُزم وقتل . ويقول ياقوت إن عامة أخبار المدائنى ، الذى سنذكره حالا ، عن عوانة : وكان النحوى والمنقب المشهور ، الأصمعى ، ممن سمعوا منه . ولا تلقى الأخبار التى يرويها ياقوت عنه غير قليل من الضوء على نشاطه معلما أو جامعا للمعلومات : وأهمها تلك التى تجعله يقول ، عندما سئل عن قبيلته : من قوم إذا نسى الناس علمهم حفظوه عليهم . فقال السائل : فأنت إذن من كلب ، وهى قبيلة ابن الكلبى المشهور ، الذى سيقابلنا توا . ولا يقوم هذا الحكم العام على أمثلة كثيرة .

ومهما يكن الأمر فإنهم لم يميزوا أعمال الرواة من غيرهم قبل أن تتخذ الروايات صورة ثابتة صالحة للتدوين . فنجد الرجال يُذكرون بين رواة الأحداث التاريخية والأحكام الفقهية . إذ أن اعتماد القانون على الحديث والحديث على التاريخ جعل فى الإمكان الخلط بين مهمة العلوم الثلاثة حتى فى العصور المتأخرة جدا .

{ محمد بن إسحاق }

ويبتدئ هذا الأدب النثرى بصورة وافية بسيرة النبى محمد بن إسحاق ، الذى كان جده يسار من سبى عين التمر ، وهو أول سبى دخل المدينة من العراق. واختلف فى وفاته بين ١٥٠ أو ١٥١ أو ١٥٢ هـ : ودفن بمقابر الخيزران، عند قبر الإمام أبى حنيفة . ويقال إنه أول من جمع مغازى رسول الله . ويبدو أنه وقع فى مشاكل فى المدينة لسعيه وراء الأخبار لدى فاطمة بنت المنذر بن الزبير ، فكره ذلك زوجها هشام بن عروة . فهرب إلى الحيرة ، وكان بها المنصور ، فأهداه مغازيه: وسمع منه أهل الجزيرة والرى ، حيث أقام كثير من رواة أخباره. وتختلف الآراء أشد الاختلاف فى تعديله : فلم يرو عنه رأس محدثى القرن الثالث. ويُروى عن آخرين أنهم قالوا : لا يزال فى الناس علم ما عاش محمد بن إسحاق. ولكن مالك بن أنس أطلق عليه لقب « الدجال » ، وربما كان سبب ذلك نقده أحاديث مالك . وأُخذ عليه أيضا أنه كان يتشيع ، ويروى عن حفيد الحسن : وأنه استخدام جماعة من الناظمين ليؤلفوا له الأشعار ليدخلها فى سيرته ، كأنما نظمت فى مناسباتها ، مثل القصيدة التى يدافع فيها أبو طالب عن ملكه أمام مواطنيه ، والقصائد المنسوبة إلى كلا الفريقين فى المغازى ، إلخ . أضف إلى ذلك أنه غلط غلطا فاحشا فى الانساب التى ذكرها : وأنه روى عن اليهود والمسيحيين ، الذين يسميهم « أهل العلم من أهل الكتاب الأول » . وألف إلى جانب سيرته كتاب الخلفاء (لاشك أنه يريد الامويين) وكتاب المبدأ [1] .

---

[1] كتاب المبدأ هو الجزء الاول من المغازى ، ويراد بالمبدأ تاريخ البشر منذ الخلق الاول إلى ما قبل الإسلام . وانظر المغازى الاولى ومؤلفوها لهوروفتس ، ترجمة المترجم الحالى .

ولم نحصـــل على سيرة ابن إسحاق العظيمة ، كما هو معروف : وإنما نعرف محتوياتها من المقتطفات التى يوردها ابن هشام والطبرى ، والتى يكمل بعضها بعضا إلى حد ما .

{ المدائنى }

وبقية مؤلفى هذه الحقبة أقرب إلى أن يكونوا جامعين لاخبار خاصة منعزلة ، لاشـــك أنها اتخذت صورة محددة ، ولكن الشك حول نيتهم : أكانوا يقصدون بها التأليف أم مجرد التدوين لمساعدة الذاكرة . ومن أكثر هؤلاء المؤلفين تأليفا على بن محمـــد بن عبد الله المدائنى ، المولود ١٣٥ هـــ والمتوفى ٢٢٥ هـــ . وكان مولده ومنشـــؤه البصرة ، ثم صار إلى المدائن ، التى نسب إليها ، ثم صار إلى بغداد ، فلم يـــزل بها إلى أن مات . وحظى بحب إسحاق بن إبراهيم الموصلى ، الذى نعرف من الاغـــانى أنـــه كان موسيقيا محترفا ، ولكنه كان ماهرا فى غيرها من الموضوعات. ويـــروى خـــبر عن بضعة رجال من المشهورين ، كانوا جالسين العشية على باب مصـــعب الزبيرى ، فمر بهم رجل على حمار فاره وبزة حسنة . وعرف أحدهم أنه المدائنى وسأله : إلى أين ؟ فأجاب : « إلى هذا الكريم الذى يملأ كمى من أعلاه إلى أســـفله دنانير ودراهم » . يريد إسحاق الموصلى . فقال عنه يحيى بن معين ، وهو المحـــدث العـــدل الضابط : ثقة ، ثقة ، ثقة . أما القصة التالية فتنتقص منه . روى المدائـــنى خبرا عن إغارة خالد على سورية ، تضمن بيتا من الشعر عن دليله رافع . فصـــحف المدائنى كلمة منه ، فقال الراوى : « علمت أن علمه من الصحف » – لا من الرواية ، كما يجب . ويروى المدائنى نفسه خبرا عن أمر المأمون إدخاله عليه. وحديثه إياه ، فحدثه بأحاديث ، ثم ذكر لعن بنى أمية لعلى بن أبى طالب . ويسجل تـــأييدا لذلك أنه لم يسمع بالشام فى عهد الامويين أحدا يسمى عليا ولا حسنا ولا

حسينا : وإنما معاوية ويزيد والوليد من أسماء خلفاء بنى أمية . فمر مسافر فى ذلك الوقت بدار فاستسقى صاحبها ، فسمعه ينادى ابنا له باسم الحسن ليسقيه . فسأل المسافر : كيف سمى ابنه بذلك الاسم . فكان جوابه : إن أهل الشام يسمون أولادهم بأسماء خلفاء الله ولا يزال أحدنا يلعن ولده ويشتمه ، وإنما سميت أولادى بأسماء أعداء الله، فإذا لعنتُ إنما ألعن أعداء الله . وكان المقصود من هذا الخبر أن يؤثر فى الخليفة : ولعله فعل ، إذ عزم مدة أن يتخذ من أحد العلويين وليا لعهده . ولكن الراوى افترض أن الخليفة سيذهب إلى أن ذلك اللعن مناسب .

وتشبه قائمة كتب المدائنى التالية مجموعة من الفصول أو الابواب أكثر من شبهها الكتب المطردة . وتنقسم إلى مجموعات ، أولاها أخبار النبى ، وأمثلتها « كتاب أمهات النبى » أى جداته . صفة النبى . أخبار المنافقين . عهود النبى . تسمية المنافقين ، ومن نزل فيه القرآن منهم ومن غيرهم .

والمجموعة الثانية أخبار قريش ، وتستهل بنسب قريش وأخبارها . فكتاب العباس بن عبد المطلب . وأخبار أبى طالب وولده .

المجموعة التالية : مناكح الاشراف وأخبار النساء : ويبدو أنها كانت مجموعات من الاخبار العربية ، مثل كتاب من جمع بين أختين ، ومن جمع أكثر من أربع ، ومن تزوج مجوسية . وكتاب من قتل عنها زوجها . وكتاب من هجاها زوجها أو شكاها.

المجموعة التالية : أخبار الخلفاء . وهى كل ما يجب أن نسميه رسائل Monographs ، وواضح أنها مؤلفات قصيرة تعالج بعض الابحاث الصغيرة .

كتاب من تزوج من نساء الخلفاء . تسمية الخلفاء وكناهم وأعمارهم . حلى الخلفاء .

وفى آخر هذه القائمة كتاب أخبار الخلفاء الكبير ، ابتدأه بأخبار أبى بكر، وختمه بأخبار المعتصم . ولا شك أن مانجده عند المؤرخين المتأخرين ، مرويا عن المدائنى ، مقتطفات من هذا الكتاب .

المجموعة التالية فى الاحداث ، وهى رسائل صغيرة تعالج الاحداث الرئيسية فى تاريخ الإسلام : كتاب الردة ، أى الثورة التى تلت وفاة النبى . كتاب الجمل ، الموقعة التى هزم فيها على عائشة وحزبها . كتاب النهروان . كتاب الخوارج . خطب على كرم الله وجهه وكتبه إلى عماله . أخبار الحجاج ووفاته . ويضيف ياقوت إلى هذه القائمة الطويلة كتابا كبيرا لم يذكره الفهرست ، باسم كتاب الدولة العباسية ، ولكن بعضه وقع إلى ياقوت بخط السكرى ، العالم المنقب .

المجموعة التالية فى الفتوح : فتوح الشام منذ أيام أبى بكر وإلى أيام عثمان . فتوح العراق منذ أيام أبى بكر – تؤرخ هذه الفتوح عادة بتاريخ متأخر بعض الشىء – وإلى آخر أيام عمر . فتوح خراسان وأخبار أمرائها ، كقتيبة ونصر بن سيار . وتعالج اثنتان من هذه الرسائل الصغيرة الهند : وهما كتاب ثغر الهند ، وكتاب أعمال الهند . ويبدو أن القائمة الطويلة بهذه المقالات تغطى جميع منطقة الفتوح الإسلامية عدا إفريقية الشمالية واسبانيا ، اللتين لا تذكران فيها . ولعل كثيرا من المادة نفسها دخل فى كتاب البلاذرى الذى وجد فى العصر التالى . وقد عزى إلى الواقدى فى حقبة غير سابقة على عصر الحروب الصليبية مجموعة من الكتب الخاصة ببعض تلك الفتوح ، والمصطبغة بصبغة خيالية محضة فى ظواهرها وعلاجها .

المجموعة التالية في أخبار العرب ، التي تضم مجموعات من المواد الغريبة التي تمثل الاساليب العربية : كتاب من نسب إلى أمه ، وكتاب من سمي باسم أمه ، وكتاب الخيل والرهان، وكتاب بناء الكعبة .

وتعالج المجموعة التالية التاريخ الشعرى : وكثير من الموضوعات ذو عناوين توحي بأن المؤلف كان مهتما بالتفاصيل الغريبة : كتاب من تمثل بشعر في مرضه، كتاب الابيات التي جوابها كلام ، كتاب من وقف على قبر فتمثل بشعر ، كتاب من بلغه موت رجل فتمثل شعرا أو كلاما ، كتاب من تشبه من النساء بالرجال ، كتاب من فضل الاعرابيات على الحضريات ، إلخ .

ويذكر ياقوت بالاضافة إلى هذه المجموعة الكبيرة من الرسائل الصغيرة قائمة أخرى بالكتب المؤلفة، ويبدو أنها تضمنت مادة أكثر أصالة من الكتب السابقة ، التي لعلها كانت روايات مسوقة بعضها وراء بعض : ومما يقترب من التاريخ منها كتاب قضاة أهل المدينة ؛ كتاب مكة . أما بقية الكتب فأكثر اصطباغا بالصبغة الاخلاقية ، وأحدها مقالة جغرافية يحتوى على الكور وجباياتها .

وواضح أن نشاط المدائني الادبي مدهش ، حتى لو كانت الرسائل ذات حجم متوسط . وظاهر أنه كان ميالا إلى المعارف الغريبة والتفاصيل المشوقة ، ولكنه يمثل مرحلة انتقال من الرواية المفردة إلى الكتاب المطرد ، لو وثقنا بالخبر القائل إنه ألف كتبا من الصنف الاخير .

وتوجد عدة مقتطفات من أبحاث المدائني عند المؤرخين المتأخرين ، وفي العقد الفريد للجماعة الأندلسي ابن عبد ربه . وربما كانت مجموعته من خطب على

كاملة فى هذه الكتب ، ولعله راوى مجموعة الرسائل المتبادلة بين على ، ومعاوية ، وغيرهمـــا ، المحفوظة فى الكتاب نفسه ، والمذكورة فى غيره من الكتب . ويقال إن أكثر مادته عن عوانة . ولكن القيمة التى يمكن أن نعطيها لهذه الوثائق مشكوك فيها أشـــد الشك ، كما سنرى بعد . فقد جمع أحد المشهورين من آل على ، الشريف الرضى ، فى حقبة متأخرة ، هى أواخر القرن الرابع ، مجموعة مما بقى من آثار جده العظيم سماها نهج البلاغة ، وظاهر أن هذا الشخص لم يثق كثيرا بمجموعة المدائنى. وعلينا أن نبحث فى المجموعتين كلتيهما ، فى الرسائل والخطب ، عما إذا كان هناك احـــتمال بـــأن يطلع شخص على الرسائل التى تسلمها الفريقان كلاهما ، أو على الخطب المدونة أو المحفوظة ، فى الوقت الذى يقصد منها أن تؤثر فى سلوك الناس ، لا أن تـــثير اهـــتمامهم باعتبارها أثرا تاريخيا أو نمطا من أنماط الاساليب . ويزداد احـــتمال الاحـــتفاظ بالرســـائل المتبادلة بين المنصور ومحمد بن عبد الله العلوى ، المطـــالب بالخلافة ، تاريخية ، على الرغم من اختلاف النسخ الواردة عند الطبرى والمـــبرد فى بعـــض التفاصيل المهمة . ولكن المرجح أن فرص الاحتفاظ بأمثال هذه الرسائل قبل إيجاد هذا الديوان كانت قليلة ضئيلة . .

{ هشام الكلبى }

ويشبه المدائنى فى موضوعاته وطريقة علاجه هشام بن محمد بن السائب الكلبى، الذى كان من الطبقة الاولى فى الانساب : ويقال إن أحد كتبه فى هذا العلم لا يزال موجودا . ويقال إنه توفى عام ٢٠٤ أو ٢٠٦ هـ : وتزيد قائمة كتبه عن ١٥٠ . وقد طبع أحدها ، وهو كتاب الاصنام ، وحجمه صغير ، ويرجح أن بقية كتبه من الحجم نفسه . ويشتبه كثير من العناوين بعناوين تلك المقالات المذكورة فى قائمة المدائنى . ويعالج كثير منها التاريخ الجاهلى ، مثل كتاب ملوك كندة ، وكتاب ملوك اليمن من التبابعة ، وكتاب ملوك الطوائف — وهى عناوين لا توحى بكثير من الثقة ، إذ ليس من المحتمل أن يكون لدى ابن الكلبى معرفة بالنقوش التى لا يمكن إبانة هذا التاريخ إلا منها ، والتى كان الهمدانى الجغرافى العربى الوحيد الذى حصل عليها واستخدمها فى مثل هذا البحث . وعالجت عدة رسائل ألوانا مختلفة من الماضى الجاهلى ، مثل كتاب أديان العرب، وكتاب حكام العرب، وكتاب الكهان ، وكتاب الجن . ولكن بعضها ذوو قوائم تبدو بأنها تاريخ فعلى ، مثل كتاب أولاد الخلفاء . وعالج غيرها أحداثا كانت فى عهد النبى ، وكان غيرها ذا صبغة جغرافية أو إحصائية . ويقال إنه عاش فى كنف أحد البرامكة .

{ الواقدى }

ولا شك أن المؤلف الذى حاز أعظم الشهرة فى هذا القرن هو محمد بن عمر الواقدى، الذى طال به العمر من ١٣٠ إلى ٢٠٧ هـ . ويعد الواقدى أعلى منزلة من المدائنى والكلبى كليهما ، ويقال إنه سمع من مالك بن أنس وسفيان الثورى،

وكلاهمـــا من أسمى الفقهاء منزلة: ويقال ايضا إنه لقى ابن جريج الذى يرتبط اسمه بمبتدأ دراسة الحديث . وكان الواقدى حجة فى الحديث والفقه شأنه فى التاريخ مثله مـــثل الطبرى الذى سيشغلنا فى المحاضرة التالية . وقد ولاه الرشيد القضاء بشرقى بغـــداد ، ثم ولاه المأمون القضاء بعسكر المهدى . ويروى ياقوت قصة تمثل علاقة الواقدى بالمأمون . كتب الواقدى إلى المأمون مرة يشكو ضائقة ركبه بسببها دين ، وعيَّـــن مقـــداره. فوقع المأمون على قصته بخطه . فيك خلتـــان: سخاء وحياء ، فالســـخاء أطلق يديك بتبذير ما ملكت ، والحياء حملك على أن ذكرت لنا بعض ديـــنك ، وقـــد أمـــرنا لك بضعف ما سألت ، وإن كنا قصرنا عن بلوغ حاجتك فبجنايـــتك على نفسك ، وإن كنا بلغنا بغيتك فزد فى بسطة يدك، فإن خزائن الله مفـــتوحة، ويده بالخير مبسوطة ، وأنت حدثتنى حين كنت على قضاء الرشيد : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال للزبير : « يا زبيرُ ، إن مفاتيح الرزق بإزاء العرش ، يترل الله سبحانه وتعالى للعباد أرزاقهم على قدر نفقاتهم ، فمن كَثّر كُثّر له ، ومن قَـــلّل قُـــلّل عليه » . قال الواقدى : نسيت الحديث ، وكان تذكيره لى به أعجب من صلته .

وهـــــاك قصة يفترض أن الواقدى رواها . قال : كان لى صديقان أحدهما هاشمى ، وكنا كنفس واحدة ، فنالتنى ضيقة شديدة وحضر العيد . فقالت امرأتى : أما نحن فى أنفسنا فنصبر على البؤس والشدة ، وأما صبياننا هؤلاء فقد قطعوا قلبى رحمـــة لهم ، لانهم يرون صبيان الجيران قد تزينوا فى عيدهم وأصلحوا ثيابهم ، وهم عـــلى هذه الحال من الثياب الرثة ، فلو احتلت بشىء نصرفه فى كسوتهم . قال : فكتـــبت إلى صديقى الهاشمى أسأله التوسعة علىَّ بما حضر . فوجه إلى كيسا مختوما ذكر أن فيه ألف درهم . فما استقر قرارى إذ كتب إلىَّ الصديق الآخر يشكو مثل

مـا شكوت إلى صاحبى. فوجهت إليه الكيس بحاله. وخرجت إلى المسجد فأقمت فيـه ليلى مستحيا من امرأتى . فلما دخلت عليها وأخبرتها بما فعلت ، استحسنت مـا كـان مـنى ، ولم تعنفنى عليه . فبينا أنا كذلك إذ وافى صديقى الهاشمى ومعه الكيس كهيئته، فقال لى : اصدقنى عما فعلته فيما وجهت إليك . فعرفته الخبر على وجهـه، فقـال : إنك وجهت إلىَّ وما أملك على الارض الا ما بعثت به إليك ، وكتـبت إلى صـديقنا أسـأله المواساة ، فوجه إلىَّ كيسى بخاتمى . قال الواقدى : فتقاسمنا الكيس أثلاثا . ونما الخبر إلى المأمون ، فدعانى ، فشرحت له الخبر ، فأمر لنا بسبعة آلاف دينار ، لكل واحد ألفا دينار ، وللمرأة ألف دينار .

ويروى ياقوت خبرا عن ضخامة مكتبة الواقدى ، يقول : لما تحول الواقدى مـن الجـانب الغربى يقال إنه حمل كتبه على عشرين ومئة وقر : وبرغم ذلك كله كـان يقـول مفتخرا : ما من أحد إلا وكتبه أكثر من حفظه ، وحفظى أكثر من كـتبى. ويقتضـى ذلك أن الثمرات الادبية للأعوام الستين من عمره كانت غير عاديـة: وبالرغم من ذلك يبدو أن الادلة قوية على كراهية التدوين التى استمرت حتى إلى ما بعد منتصف القرن الثانى ، بحيث لا يشك فيها .

وقائمة كتب الواقدى طويلة ومتنوعة : وكثير من الكتب المذكورة فيها من الـنمط الـذى كان المدائنى يؤثره : رسائل صغيرة عن أحداث خاصة فى التاريخ الإسـلامى : ويمثلها كتاب السقيفة وبيعة أبى بكر : وكتاب وفاة النبى : وكتاب الـردة والـدار ، يـريد بالدار مقتل عثمان : وسبب جمعه بين هذين الحادثين غير واضـح : وكـتاب صفين ، إلخ . وعلى رأس هذه الكتب التاريخية كتاب التاريخ الكـبير ، وكتاب التاريخ والمغـازى والبعث ، وهو تاريخ لبعثة النبى ، ومغازيه .

ونستخلص من العناوين أن جميع هذه الكتب ، لو بقيت ، لكان لها قيمة تاريخية كبيرة .

وأطرى الباحثون الاوروبيون الواقدى لاهتمامه الخاص بالأزمنة، وأحكام ثقات المسلمين عن كتابه فى جانبه فى معظم الاحيان ، وإن لم تجمع على ذلك . والكتاب الوحيد الذى رأى الضوء من كتبه جزء من مغازيه ، نشر هنا (كلكتا) ، وترجمة ألمانية لمخطوطة أكمل محفوظة فى المتحف البريطانى. وتضم قائمة كتبه بعض الفتوح ، فتوح الشام ، وفتوح العراق . ولكن الكتب التى طبعت تحت هذه الأسماء معزوة إليه ، كما قد رأينا ، كتب ظنية ، وليست بذات قيمة تاريخية.

{ الهيثم بن عدى }

والهيثم بن عدى ، الذى عاش فيما بين سنتى ١٣٠ و ٢٩٠ هـ ، كاتب آخر من المكثرين فى التأليف، يكثر ورود اسمه بين رواة الاخبار التاريخية. ويشبه مجال دراسته مجال ابن الكلبى ، الذى كان يذوب أمامه : لتفوقه عليه تفوقا ظاهرا . ولايثق عظماء المحدثين بروايته . ويروى عن جارية له أنها قالت : كان مولاى يقوم عامة الليل يصلى ، فإذا أصبح جلس يكذب . وقد امتد حب استطلاعه إلى الشئون الخاصة لمعاصريه ، الذين دفعوا الشعراء لهجائه . ويضم ديوان أبى نواس أهجية لاذعة فيه ، يقال انها قيلت فيه بسبب إخفاقه فى معاملة هذا الرجل المهم بالاحترام الملائم له عندما حضر لسماع إحدى محاضراته . وتضم قائمة كتبه الطويلة جدا مجموعة من عناوين الرسائل الصغيرة التى تعالج فصولا من

التاريخ القبلى الجاهلى ، أو أحداث صدر الإسلام ، أو مواد أثرية متصلة بالمدن الإسلامية والهيئات الإسلامية . فنجد فيها تواريخ ولاة وقضاة الكوفة، والبصرة وما شابههما . ولكن فيها أيضا « كتاب التاريخ مرتبا على السنين » ؛ ولابد أنه مثال قديم جدا من أمثلة هذا اللون الذى سيصير بعد لونا عاديا . وربما نستنتج أن كتبه حازت شهرة كبيرة فى حياته من الخبر القائل بأن الخليفة هارون الرشيد عرف حالا أنه الشخص المذكور فى هجاء أبى نواس ، عندما شكى أمامه .

{ الزبير بن بكار }

يقابلنا شخص آخر كثيرا بين رواة الاخبار التاريخية، هو الزبير بن بكار . ويقال إنه من أبناء عبد الله بن الزبير – الذى نصب نفسه خليفة مدة – صليبة . ومات قاضيا على مكة فى ٢٥٦ هـ. وقائمة كتبه على شيء من الطول ، وتتألف بصفة رئيسية من تراجم الشعراء : ولكن بعضها تناول أحداثا تاريخية . ونجد فى القائمة مثالا قديما من أمثلة تسمية الكتب بأخبار من ألف لهم . فقد سمى مقالة تاريخية « الموفّقيات » ، ألفها للموفق بالله ، أخى المعتمد الذى كان القائم بأمر الدولة .

ويوجد كثير من الأحاديث أو الرويات التى جمعها هؤلاء الرجال سليما فى الكتب المتأخرة : وما نجده واضحا فى تلك الحقبة هو عملية جمع المكتبات، وإن ارتحل الراغبون فى أن يكونوا ثقات فى التاريخ فى أنحاء الامبراطورية ليسمعوا المحاضرات المشهورة . فيروى أن أبا عون بن عطاء وصلت الكتب فى بيته إلى السقف : وقد توفى سنة ١٥٤ هـ ، أى فى الوقت الذى لم يكن فيه الأدب النثرى

إلا شيئا بادئا . ويضاف أن أبا عون أحرق مكتبته قبل وفاته ، وهو عمل يروى عن عـــدد غير قليل من الرجال. وتوجد رسالة حفظها أبو حيان التوحيدى بتاريخ سنة ٤٠٠ تقريـــبا ، يدافـــع فيها عن مسلكه هذا بالاستشهاد بكثير من المشهورين . ويـــتوهم المرء أن الدافع الاساسى كان الرغبة فى أن يعتبره الناس المرجع المطلق فى موضوعه : إذ لو حفظت المراجع المدونة لمؤلف ما ، فربما فضل من جاء بعده ذكر هـــذه المراجع على الكتاب القائمين عليها . وتدل عبارة الخبر فى حالة أبى عون أنه فعـــل ذلـــك تورعا ؛ إما أن هذا المنقب رجع إلى الرأى القائل بكراهية تدويـــن الكـــتب ، أو أنه ظن أن محتوياتها تافهة . وجدير بالملاحظة أن الملكية فى الكتب لم تكن بعد حقا معترفا به ، فى تشريع أبى يوسف ، فى عهد هارون الرشيد : والكتب الوحيدة التى يبدو أن هذا الفقيه عرفها هى القرآن ودواوين الشعر .

{ إبراهيم بن محمد بن سعيد }

عـــلى الرغم من شيوع التاريخ المطرد فى القرن الثالث ، على حين تناثر ما وجد منه فى القرن الثـــانى، احتفظت الرسائل الصغيرة بشيوعها فى القرن الثالث . وكـــان مـــن المؤلفين المكثرين من هذا اللون إبراهيم بن محمد بن سعيد بن هلال ، الكـــوفى الاصـــل ، والذى انتقل منها إلى أصفهان ، وأقام بها إلى أن مات فى سنة ٢٨٣ هـــ . وادعى أنه سليل عدة آباء مشهورين : فكان أحد أجداده عم المختار ابـــن أبى عـــبيد المغامر ، وهو الذى لجأ إليه الحسن حفيد النبى. وكان زيديا أولا ، وانـــتقل إلى الامامية ، وصار من مشهوريها . وتبدو قائمة كتبه التى تشغل صفحة كامـــلة كأنمـــا هى نسخة من قائمة بعض المجموعات فى ثبت المدائنى : ففيها كتاب الســـقيفة ، وكـــتاب الـــردة ، وكـــتاب مقتل عثمان ، وكتاب صفين ، وكتاب

الحكمين، ... إلخ . ولا شك أن جميع هذه الكتب تبرز هذه الاحداث المهمة من وجهة نظر الفرقة التى انتمى إليها . وكان كالواقدى فقيها أيضا ، وألف نشرات ومقالات عن فصول منفصلة . وعبر عن شعوره تجاه وطنه بكتاب فضل الكوفة ومن نزلها من الصحابة . وينتمى أحد كتبه ، واسمه كتاب من قتل من آل محمد ، إلى لون من الكتب كثير معروف فى أدب الشيعة .

ويبدو أنه لم يبق من تواريخ هذه الحقبة ما يجعلنا قادرين على الحكم الصادق عليها، سوى تساريخين منها ، تاريخ محمد بن إسحاق والواقدى . أما محمد بن إسحاق فمن المستطاع وصفه بأنه كاتب ساحر ، يعرف كيف يجمع مادته بطريقة تبقى قارئه متشوقا : ويستطيع أن يعطينا عن كبار الرجال الصنف الذى ييسر لنا تصورهم من المعلومات : ويستطيع أن يقدم لنا ، حين تحتاج الاخبار إلى تعليق من جانب المؤلف ، ملاحظات من المؤكد أنه لا يستطاع إغفالها ، وإن لم تكن مقنعة دائما . وواضح أن ابن هشام الذى اقتبس من ابن إسحاق كان ذا أفكار عن الملكية أعظم صرامة من ابن إسحاق نفسه . فقد اعترف المقتبس بأنه طرح المكروه من الاخبار، وكثيرا ما اعتذر عن عدم قدرته على ذكر الاشعار الموجودة فى كتاب ابن إسحاق ، لانها غير مناسبة . ويتفق بعض الاخبار التى أوردها مع ما وجد من الواقدى حرفا بحرف ، ومن المستطاع تفسير بعض الخلافات بينهما بالدوافع التى كانت تسيطر على جامع الاخبار. ويبدو ان قول ياقوت أن محمد بن إسحاق روى عن الواقدى يتعارض مع تاريخ حياتهما ، لأن الواقدى متأخر عنه . وإذ افتتح كتاب ابن إسحاق مجموعة من التراجم والتواريخ ، وكان من أسس كثير من السير النبوية المتأخرة ، التى لايستطاع إحصاؤها ، كان دين مستقبل الايام له عظيما جدا. وفى الوقت نفسه على وجه التقريب ، كان مالك بن أنس مشغولا بموطئه ،

وهـــو المجموعة الأولى من أقوال النبى وأعماله التى من الممكن الرجوع إليها لتكملة القرآن : ويروى أن بعض معاصريه اعترضوا عليه لابتداعه مثل هذا الامر ، ولكن يقـــال إن الخـــليفة كان يعتبره منفعة عامة . وعلى الرغم من أن ترجمة ياقوت لابن إســـحاق طويـــلة ، لم يـــدون ما يشبه هذا الاعتراض فى حالته : فالاعتراض ليس موجها إلى تدوين السيرة ، وإنما إلى الخلود المفروض للمؤلف .

وليـــس من اليسير الاجابة عن السؤال ما إذا كان أحد من هؤلاء الكتـــاب أو المحدثين الذين اعتمدوا عليهم زيّف التاريخ فعلا لارضاء شخص أو فرقة مـــا . وكـــان المعـــتاد أن يضـــع الـــرواة ، عند رواياتهم الاحداث ، الافكار المفترضة للمشـــتركين فيها ، فى ألفاظهم الخاصة ، كما قد رأينا : فوضعت المقابلات التى لا بد أنها كانت بطبيعتها سرية وبقيت كذلك ، على هيئة الحوار ، ثم ادعى من جاء بعدهـــم مـــن المؤرخـــين أن ما أمامهم ليس خيالا وإنما الحقيقة المجردة . وكررت التخمينات القائمة فى أغلبها على الاشتقاق اللغوى لا باعتبارها تفسيرات تخمينية ، وإنما باعتبارها مسجلات مروية . ولعلنا لو اكتشفنا نسخ الجهود الادبية للمدائنى ، والهيـــثم بـــن عدى ، وابن الكلبى ، وجدنا فيها كثيرا مما ترغمنا قوانين الاحتمال الـــتاريخى عـــلى رفضه . ولكن مهما كان الامر فإن الخدمة التى أدوها بتشكيلهم مجموعـــات الاخـــبار المتعلقة بالاحداث المهمة فى الخلافة الإسلامية عظيمة جدا . ويشـــبه عملهم فى تمهيد الطريق للتاريخ المطرد عند الطبرى عمل فقهاء المدينة فى تمهيد الطريق لتشريعات المذاهب المختلفة تمام الشبه . ولما كانت الاحداث لا يمكن تسجيلها إلا على يد مشاهديها أو المشتركين فيها ، فقد استلزم جمع هذه المادة من مصـــادر بهـــذه الكـــثرة بحثا واسعا ، وأسفارا بعيدة فى غالب الامر . ولما لم تكن الاحـــداث مقصـــورة على مساحة معتدلة كالحجاز مثلا ، وإنما منتشرة فوق بقعة

كـــبيرة تشـــغل أجـــزاء من قارتين أو ثلاث ، لم يكن من اليسير بلوغ أى مصدر للمعرفة . وعاونت دراسة الحديث النبوى ، والتاريخ ، والجغرافيا بعضها بعضا فى تطويـــرها ، إذ لمـــا كـــانت وسيلة الحصول على المعلومات عن الاولين من هذه الموضـــوعات الرحلة ، صارت كتب المسالك والممالك عونا للمحدّثين والمؤرخين أيضا ، وإن قُصد بها معاونة الحكومة أولا .